نشأ أبو تمام في دمشق بعد انتقاله اليها مع أبيه . واشتغل في مطلع حياته عاملاً صغيراً في حانوت للحياكة . وفي اثناء ذلك كان يتردد الى حلقات الدرس ويسمع مايدور على أفواه العلماء والادباء من علوم اسلامية اصيلة او وافدة مثل الفلسفة اليونانية . وتنقل كثيراً في سبيل التعلّم . وكانت رحلته الاول الى حمص . حيث أفاد من الشاعرين عتبة بن عبدالكريم الطائي . وعبدالسلام بن رَغْبان المعروف بديك الجن . وانتفع بما عندهما من معرفة بصنعة الشعر . وبعدها شدّ رحاله الى مصر ونزل المسجد الجامع في الفسطاط ليكسب معاشاً وينهل علماً . وأسعفته قدرته على قرض الشعر الجيد منذ الوهلة الاولى وتسخيره للمدح كما يفعل كثير من الشعراء . فنظم قصيدة في مدح صاحب الشرطة والخراج عيّاش بن لهيعة الحضرميّ . منها قوله :(٤١٥)

وما ضيقُ أقطارِ البلادِ أضافني إليكَ ولكن مذهبي فيك مذهبي(٤١٦)
وأنت بمصرٍ غايتي وقرابتي بها وبنو الآباءِ فيها بنو أبي

وفي رواية للصولي ان أبا تمام قال عن هذه القصيدة انها « أول شعر قلته ... ومدحت به عياش بن لهيعة فأعطاني خمسة آلاف درهم »(٤١٧) ولا تتّسق هذه الروايه مع عتابِ أبي تمام للممدوح فيما بعد ولامع هجائه له . ومع ذلك قد يحصل أن يمدح شاعر شخصاً ثم ينقلب عليه فيهجوه كما فعل مسلم بن الوليد مع يزيد بن مزيد الشيباني(٤١٨)

عاد الى موطنه دمشق سنة ٢١٤ للهجرة بعد مكوثه في مصر اكثر من خمسة أعوام . استوعب فيها علوماً كثيرة . ووقف على كتبٍ جمة . وكان المأمون آنذاك يتجول في الشام بعد رجوعه من حرب الروم والانتصار عليهم . وقد مدحه ابو تمام بقصيدة طويلة . منها قوله :(٤١٩)

---

(٤١٥) ديوانه ١ : ١٥٩

(٤١٦) يقول : لم يلجئني ضيق البلاد عليّ . وكساد بضاعتي عند الناس . ولكن مذهبي أنّ أسأل أبا الكريم .

(٤١٧) أخبار أبي تمام ص ١٢٦ .

(٤١٨) الاغاني ١٩ : ٢٩ .

(٤١٩) ديوانه ٢ : ١٥٦

يا أيُها الملكُ الهمامُ وعدلُهُ ملكٌ عليه في القضاءِ هُمامُ
أوريتَ زندَ عزائمٍ تحت الدُجى أسرجْنَ فكركَ والبلادُ ظلامُ
فنهضتَ تسحبُ ذيلَ جيشٍ ساقهُ حُسْنُ اليقينِ وقادهُ الاقدامُ
حتى نقضتَ الرومَ منكَ بوقعةٍ شنعاءَ ليس لنقضِها إبرامُ

لم يظفر أبو تمام عنده بما كان يحلم به أو يتأمله . وراح ينظم شعرا في رثاء بطل من طيء هو محمد بن حميد الطائي الذي كافح بابك الخرمي كفاحاً مريراً وخانه القدر فسقط في ميدان النضال . وأخذ هذا الشعر يحتلّ مكانةً ممتازةً في الأوساط الادبية ولا سيما قصيدته التي يقول في مطلعها :(٤٢٠)

كذا فليجلُّ الخطْبُ وليفدح الأمرُ فليس لعينٍ لم يفض ماؤها عُذرُ

وكان يحبّ التنقّل والتطواف وانتجاع الأقاليم والثغور في العالم الاسلامي الذي عده وطناً واحداً له . وقد صوّر هذه الحالة أصدق تصوير في ابياته الاولى من قصيدته التي مدح بها محمد بن حسّان الضبي :(٤٢١)

ما اليوم أوّلَ توديعٍ ولا الثاني البينُ أكثرُ من شوقي وأحزاني
خليفةُ الخضرِ مَن يزبعْ على وطنٍ في بلدةٍ فظهورُ العيسِ أوطاني
بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا بالرقمتينِ وبالفسطاط اخواني
وما أظنُّ النوى ترضى بما صنعت حتى تُطوّحَ بي أقصى خراسانِ(٤٢٢)

انه على سفرٍ دائم . وترحلٍ قائم . على ظهور الابل . يطوفُ البلادَ وكأنه خليفة الخضر . فأهله في الشام . وهواهُ في بغداد . وهو بالرقمتين . واخوانه بمصر . وقد يطرح به النوى أقصى خراسان . هكذا حقاً كان أبو تمام . فنراه يرتحل الى الموصل ومنها الى ارمينية . وينال عطاءً وافراً من واليها خالد بن يزيد الشيباني . ثم يقفل راجعاً الى بغداد بعد وفاة

يا خيرة الله من خلقٍ ومودعَ سرّ الحياة وقاتلَ الأعدام
إنّ الصفائح منكِ قد نُضِدَتْ على مُلقًى بعظامٍ لو علمتِ بعظام !

وفي أوائل سنة ٢٢٩ للهجرة عُين أبو تمام على بريد الموصل وانتهى تطوافه ومرافقته للخليفة وحاشيته . ولكنه لم يمكث طويلاً اذ فاجأه الموتُ سنة ٢٣١ للهجرة على أرجح الآراء ولم يتجاوز الأربعين الاّ قليلا . ودفن في الموصل خارج الميدان على حافة الخندق(٤٣٧) . ورثاه محبُّوه أمثال أبي عبادة البحتري . وعلي بن الجهم . ومحمد بن عبد الملك الزيات . والحسن بن وهب . وأبو الشيص . وأحمد بن يحيى البلاذري ...

---

(٤٢٧) الشعر ص ٣٢٠
(٤٢٨) ديوانه ١ ، ٥
(٤٢٩) ديوانه ٢ ، ١٩٨ .
(٤٣٠) ديوانه ٢ ، ٣٢ .
(٤٣١) وفيات الأعيان ٢ ، ٧ . هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام ص ٤٩ .

صفاته :

كان أبو تمام شخصية مرموقة تملأ العين . قال أبو البركات الأنباري : « كان موصوفاً بالظرف . وحُسن الأخلاق . وكرم النفس(٤٣٢) . ومن أميز صفاته الذكاء الحاد والاحساس بالشي قبل وقوعه . ذكر الصولي أنّ أبا تمام « إذا كلمه إنسان أجابه قبل انقضاء كلامه . كأنّه كان على علم بما يقول فأعدّ جوابه »(٤٣٣) . ويُروى أنه لما أنشد قصيدته في مدح محمد بن عبد الملك الزيات ومطلعها :

ديمةٌ سمحةُ القيادِ سكوبُ مُستغيثٌ بها الثرى المكروبُ

سمعها أحد الفلاسفة الجالسين وقال : « إنّ هذا الفتى يموت شاباً . فقيل له : ومن أين حكمتَ ؟ قال : رأيتُ فيه من الحدّة والذكاء والفطنة . مع لطافة الحس وجودة الخاطر . ماعلمتُ به أنّ النفس الروحانية تأكل من جسمه كما يأكل المهند من غمده »(٤٣٤)

وكان أبو تمام حاضر البديهة . سريع الإجابة والاقناع . يتخلّص من المواقف الحرجة بذكاء ولباقة . من ذلك قصته حينما مدح أحمد بن المعتصم بسينيته المشهورة . وكان الفيلسوف الكندي حاضراً . وانتهى الى قوله :

إقدامُ عمرٍو في سماحة حاتم في حلمِ أحنفَ في ذكاء إياس(٤٣٥)

اعترض عليه الكندي وقال : الأميرُ فوق مَن وصفتَ . فأطرقَ قليلاً ثمّ رفع رأسه وأنشد :

لاتنكروا ضربي له مَنْ دونَهُ مثلاً شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الاقلّ لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

ثم استمر في انشاده حتى أتم القصيدة ولما أخذتْ من يده لم يجدوا بها البيتين ، فعجبوا من سرعة فطنته واهتز الأمير طرباً .(٤٣٦)

ومن صفات أبي تمام حبُّ التجول والمسير بلا ضجر ولا ملل من أجل الوصول الى المكان الذي عقد العزم على الذهاب إليه . وقد صدق في قوله(٥٣٧) :

مالابيضُ وَجْهُ المرء في طلب العُلَى حتى يسوَدَّ وجهُهُ في البيد

والى جانب حُبّه للسفر . كان كريماً سخياً مسرفاً . يحبُّ أطاليب الحياة غير أنه لم يكن متهتكاً . بل كان يأتي ملذاته في ستر(٥٣٨) .

ثم مزية أخرى لأبي تمام أنه كان كثير النظر في الكتب والحفظ . قال محمد بن قدامة : « دخلت على حبيب بن أوس بقزوين وحواليه من الدفاتر ماغرق فيه فما يكاد يرى . فوقفتُ ساعة لايعلم بمكاني لما هو فيه . ثم رفع رأسه فنظر الىَّ وسلّم عليَّ فقلتُ له : ياأبا تمام إنك لتنظر في الكتب كثيراً وتدمن الدرس فما أصبرك عليها !فقال: والله مالي الفٌ غيرها ولا لذةَ سواها.(٥٣٩) والى جانب هذه القراءة كان يستظهرُ شعراً كثيراً وقد « قيل : إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقاطيع »(٥٤٠)

شعره :

لانظن دارساً للأدب العربي لايعرف الى أي مدى سار أبو تمام بالشعر نحو التطور والتجديد . وكيف حرّك النقاد ـ قديماً وحديثاً ـ الى دراسة شعره واطلاق الأحكام المتباينة فيه . فهو شاعر امتاز بالثقافة الواسعة . والذكاء الحاد . والحفظ الغزير للشعر العربي الموروث . قال المبرد : سمعت الحسن بن رجاء يقول : « مارأيت أحداً قطُّ أعلم بجيد الشعر قديمه وحديثه من أبي تمام(٥٤١) » وعدَّهُ محمد بن عبد الملك الزيات « أشعر الناس طرّاً »(٥٤٢) . وقال الشاعر عمارة بن عقيل حينما قدم الى بغداد وسمعهُ الناسُ شعراً لأبي تمام وحكّمه فيه « لئن كان الشعر بجودة اللفظ . وحسن المعاني . واطراد المراد . واتساق الكلام . فانَّ صاحبكم هذا أشعر الناس »(٥٤٣) . وقال الزمخشري : « وهو وإن كان مُحدثاً لايُستشهدُ بشعره

---

(٥٣٧) ديوانه ٤ : ٨ . ٥ .
(٥٣٨) أعيان الشيعة ١٩ : ١٩ وما بعدها . وأبو تمام للدكتور عمر فروخ ص ٣٦
(٥٣٩) طبقات الشعراء ص ٢٨٥ .
(٥٤٠) وفيات الأعيان ٦ : ١٢ .
(٥٤١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١ : ١٤ .
(٥٤٢) الاغاني ١٦ : ٢٨٤ .
(٥٤٣) الأغاني ١٦ : ٢٨٥ .

في اللغة . فهو من علماء العربية . فأجعل مايقوله بمنزلة مايرويه »(٥٤٤) . وإنّ أردنا أن نجمع ماقيل في أبي تمام وشعره ومختاراته ابتداءً من الصولي في كتابه « اخبار أبي تمام » ومروراً بمن ترجم له الى وقتنا الحاضر لوجدنا الشيء الكثير المليء بالاطراء والاعجاب والثناء .

تناول أبو تمام معظم موضوعات الشعر المعروفة وبرع فيها إلاّ الهجاء فقد قَصُرَ بهما وأكثرُ شعره في فني المديح والرثاء . فهما يُشكّلان أكثر من ثلثي الديوان . وقد اشتهر بها حتى قيل : أبو تمام مذاحة نوّاحة .

لقد صبَّ جلَّ طاقته الشعرية في اجادة المديح لأنه الموضع الذي يمتحن به

وهذا مانجده بكثرة في قصائده المدحية . وقد يبدأ بوصف صاحبته ومعاناته في هواها ثم يعود الى ذكر ديار ها . وبعدها يخلص الى ممدوحة مثل قصيدته في مدح القاضي أحمد بـن أبي دؤاد . يقول في أبياتها الأولى :(٤٤٧)

أرأيـــت أيّ سوالـــف وخدود عنّتْ لنا بين اللّوى فزرود
أترابُ غـافلة اللّيالي ألّفتْ عُقَد الهوى في يارق وعقود(٤٤٨)
بيضاءُ يصرعُها الصّبا من نعمةٍ خَوْدٌ كخُوط البانةِ الأملود(٤٤٩)
مالي بربع منهـمُ مـعـهود إلاّ الأسى وعزيـمةُ الـمـجـلود

ويذكر ناقته وماتعاني من تعب ومشقة . ثم يصف كيف تحط رحالها في رحاب الممدوح فتجد أمناً وراحة وطمأنينة :

هـيـهاتَ مـنـها روضةٌ مـحـمودةٌ حـتى تُـنـاخَ بأحـمدالمحمـود
بمعرّس الغرب الذي وجدتْ فيه أمـن المروءة ونجـدة المنجـود

إنّ ابا تمام يعنى عنايةً فائقةً بمقدمته المدحية . وكثيراً مايلتفتُ فيها الى نفسه . فيصف همومه وآلامه . وقد يودعها حكماً وتأملاتٍ تدلُّ على نظر عميق وفكر دقيق . وهو عندما ينتقل من هذه المقدمة يُحكم الربطَ بينها وبين الموضوع الأساس وهو المديح كي لايشعر القاري أو السامع بفجوة أو عثرةٍ . حينما يرفعُ من شأن الممدوح . ويُشهرُ مناقبه ويُظهرُمناسبه ... وقد يُطيل في استهلاله قبل التخلّص الى المدح . كما نلاحظ ـ مثلاً ـ في قصيدته التي مدح بها الخليفة المعتصم وأولها :(٤٥٠)

رقّتْ حواشي الدّهر فهي تمرمرُ وغدا الثّرى في حَلْيِه يتكسّرُ

فهو يصف الطبيعة في لوحة جميلة جذّابة في أكثر من عشرين بيتاً . يأتي فيها على مباهج هذه الطبيعةومافيهامن مناظر جذّابة . ولاسيما في زمن الربيع الذي تخضرُّ فيه المروج في حُلّةٍ بديعة . وتتفع الزهور بألوانها الزاهية . ثم يربط بين

---

(٤٤٧) ديوانه ١ ، ٢٨٩ .
(٤٤٨) غافلة الليالي ، ناعمة البال . ألفت عقد الهوى ، جمعت الهوى بما لاح من حسنها
اليارق ، السوار .
(٤٤٩) الخود ، الحسنة الخلق الشابة الناعمة . الخود ، الغصن . الأملود ، الأملس الناعم .
(٤٥٠) ديوانه ٢ ، ١٩١ .
(٤٥١) تمرمر ، تموج وتضطرب ليناً ونعمة .

هذه المقدمة الظريفة التي تفتّح النفوس وتسرُّها مع خُلُقِ الخليفة العظيم الذي عمّ البريّة بعدله ولطفه وكرمه :

خُلُق أطلّ من الربيع كأنّهُ خُـلُـقُ الامامِ وهديُـهُ الـمـتـيـسّرْ
في الأرض من عدل الإمام وجوده ومن النّبات الغضّ سَرْج تزْهرْ
تـنـسـى الرّياضُ وما يروّضُ فـعـلـهُ أبداً على مرّ الـلّـيـالـي يُذكرُ

واشتهر أبو تمام بالرثاء كاشتهاره في المديح . قال ابن رشيق : « هو من المعدودين في إجادة الرثاء »(٤٥٢) . وقال الآمدي : « هو أشعر الناس في المراثي »(٤٥٣) . لقد كانت مراثية رائعة وكأنّها أناشيد حربية ولاسيما ماقاله في القائد محمد بن حُميد الطائي الذي استشهد في ساحة الوغى ولم يكن عجباً أنْ يطلب أبو ذلف العجلي من أبي تمام أن ينشدهُ قصيدته الرائية (كذا فليجل الخطب ...) في رثاء هذا القائد . ومنها :

وما ماتَ حتى ماتَ مضْربُ سيفه مِنَ الضّرب واعتلّتْ عليه القنا السُّمْرُ
وقد كان فوتُ الموتِ سهلاً فردّهُ إليه الحفاظُ المرُّ والخُلُقُ الوعرُ
فأثبتَ في مستنقع الموتِ رجلهُ وقال لها من تحتِ أخمصكِ الحشْرُ
غدا غدوةً والحمد نسجُ ردائه فلم ينصرفْ إلاّ وأكفانُه الأجرُ

فقال له : « والله لوددتُ أنّها فيّ . فقال : بل أفدي الأمير وأهلي . وأكونُ المقدم . فقال : إنه لم يمت من رثْي بهذا الشعر »(٤٥٤)

إنّه كان يحسن إظهار التفجّع والتحسّر والألم على الفقيد . وخسارة الأمة فيه .

في اللغة . فهو من علماء العربية . فأجعل مايقوله بمنزلة مايرويه »(٤٤٤) . وإنّ أردنا أن نجمع ماقيل في أبي تمام وشعره ومختاراته ابتداءً من الصولي في كتابه « اخبار أبي تمام » ومروراً بمن ترجم له الى وقتنا الحاضر لوجدنا الشيء الكثير المليء بالاطراء والاعجاب والثناء .

تناول أبو تمام معظم موضوعات الشعر المعروفة وبرع فيها إلاّ الهجاء فقد قَصَرَ بهما وأكثرُ شعره في فني المديح والرثاء . فهما يُشكّلان أكثر من ثلثي الديوان . وقد اشتهر بها حتى قيل : أبو تمام مدّاحة نوّاحة .

لقد صبّ جلّ طاقته الشعرية في اجادة المديح لأنه الموضع الذي يمتحن به الشاعر ثم يُجاز عليه . وما أكثر المواقف التي نجح فيها . وفاز بالجوائز السنية والهدايا الثمينة . واحدى هذه المواقف أنه حضر مجلس أبي دُلف القاسم بن يحيى العجلي وكان كريماً سرياً جواداً . وأنشده قصيدته :

على مثلها من أربع ملاعب أذيلتْ مصونات الدّموع السواكب

فلما بلغ الى قوله :

اذا افتخرتْ يوماً تميمٌ بقوسها وازادت على ما وطّدت من مناقب
فأنتم بذي قار أمالتْ سيوفكمْ عروشَ الذي استرهنوا قوس حاجب(٤٤٥)
محاسنَ من مجدٍ متى تقْرنُوا بها محاسنَ أقوامٍ تكن كالمعايب

فقال أبو دلف : « يامعشر ربيعة . ما مدحتُم بمثل هذا الشعر قطّ . فما عندكم لقائله ؟ فبادروه بمطارفهم يرمون بها إليه . فقال أبو دُلف : قد قبلها وأعاركم لبسها . وسأنوب عنكم في ثوابه . تمّم القصيدة يا أبا تمام . فتممها فأمر له بخمسين ألف درهم . وقال : والله ماهي بازاء استحقاقك وقدرك . فاعذرنا . فشكره وقام ليقبل يده . فحلف ألا يفعل »(٤٤٦)

إنّ أبا تمام يعرف كيف ينفذ الى قلوب الممدوحين ويداعبها عن طريق مايُعجبهم . إضافة الى مقدرته العالية في اختيار ألفاظ رصينة منظومة كاللؤلؤ في سلك ذهبي متين جميل كما لاحظنا في القصيدة السابقة وقد بدأها بمقدمة طللية

---

(٤٤٤) الكشاف ١ ، ٢٢٠ .
(٤٤٥) يوم ذي قار : هو أول يوم انتصر فيه العرب على العجم . وتنظر قصة قوس حاجب بن زرارة في شرح التبريزي على ديوان أبي تمام ١ ، ٢٠٨
(٤٤٦) الأغاني ١٦ ، ٢٨٩ .

وهذا مانجده بكثرة في قصائده المدحية . وقد يبدأ بوصف صاحبته ومعاناته في هواها ثم يعود الى ذكر ديار ها . وبعدها يخلص الى ممدوحة مثل قصيدته في مدح القاضي أحمد بن أبي دؤاد . يقول في أبياتها الأولى :(٤٤٧)

أرأيتَ أيّ سوالفٍ وخدودِ عنّتْ لنا بين اللّوى فزرودِ
أترابُ غافلة اللّيالي ألّفتْ عُقَدَ الهوى في يارقٍ وعقودِ(٤٤٨)
بيضاءُ يصرعُها الصّبا من نعمةٍ خَوْدٌ كخُوط البانة الأملودِ(٤٤٩)
مالي بربع منهمُ معهودِ إلاّ الأسى وعزيمةُ المجلودِ

ويذكر ناقته وماتعاني من تعب ومشقة . ثم يصف كيف تحط رحالها في رحاب الممدوح فتجد أمناً وراحة وطمأنينة .

هيهاتَ منها روضةٌ محمودةٌ حتى تُناخَ بأحمدالمحمودِ
بمعرّس العَرَبِ الذي وجدتْ فيهِ أمنَ المروءة ونجدة المنجودِ

رَحِمَ الله جعفراً فلقد كان أبياً شهماً وكان رحيماً
مُثِّلَ الموتُ بينَ عينيه والذُّ لُّ . فكلاً رآه خطباً عظيماً
ثم سارتْ به الحميّة قُدْماً فأماتَ العِدَى ومات كريماً!

أما الاغراض الاخرى فلم يكن مكثراً فيها . فله شعر رقيق في العتاب ولاسيما في أولئك الذين مدحهم وقد تأخر رِفْدهم . مثل قوله يخاطب أبا دُلَف :(١٥٧)

أبا دُلَفٍ لم يبقَ طالبُ حاجةٍ من الناسِ غيري والمحلُّ جديبُ
يسُرك أنَ أبْتُ عنك مخيباً ولم يُرَخْلَقْ من جداكَ يخيبُ ؟ !

وأحياناً ينقلبُ هاجياً . وهو فيه أدنى مرتبة من سائر شعره . إذ تبدو لغته الشعرية في هذا اللون باردة لارواة فيها ولاجمال . ويظهر أنه لم يكن يُحسن لغة السباب والشتائم التي درج عليها بعض شعراء العصر العباسي . مثل قوله في هجاء عبدالله بن يزيد الكاتب :(١٥٨)

ما أنتَ إلا المثلُ السائرُ يعرفه الجاهلُ والخابرْ
فاكِهَةٌ ضُيِّعَ بستانُها فانتابها الوارِدُ والصادرْ

وقوله في عيّاش بن لهيعة :(١٥٩)

سَمُجْتَ بكَ الدُنيا فمالكَ حامدٌ وسمجتَ بالدُنيا فمالكَ حامدْ

ولم يَعرفْ أبو تمام بحبيبةٍ معينةٍ غازلها . وعانى فيها شوقاً وصبابةً . ومع ذلك نجد له غزلاً في مطامع القصائد المدحية . أو مقطوعات مستقلّة . مثل قوله الجميل الذي يستهوي المرء سماعه :(١٦٠)

نَقِّلْ فؤادكَ حيثُ شئتَ من الهوى ما الحبُّ إلاّ للحبيبِ الأوّلِ
كم منزلٍ في الأرضِ يألفه الفتى وحنينُه أبداً لأوّلِ منزلِ

كان أبو تمام يحسن اختيار أبياته التي تجري مجرى الأمثال والحكم . سواء كان في أثناء المديح والرثاء أم في الأغراض الأخرى . مثل قوله :(١٦١)

ان النقاد تتبعوا شعره . ونظروا فيه بدقة . وانكروا عليه اموراً جمة . والشواهد عليها كثيرة . تأخذ منها قوله :(١٦٧)

لاتسقني ماء الملام فإنني صبٌ قد استعذبت ماء بكائي

قالوا : « اذا كان ماء الملام هو ماء بكائه فكيف يكون مستعفياً منه . مستعذباً له »(١٦٨) وقد ردهم الآمدي بقوله : « ليس قول ابي تمام ـ لاتسقني ماء الملام ـ بعيبٍ عندي . لأنه لما أراد ان يقول ـ قد استعذبت ماء بكائي جعل للملام ماءً ليقابل ماءً بماء . وان لم يكن للملام ماء على الحقيقة . فان الله جلّ اسمه يقول : (وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها) ومعلوم ان الثانية ليست بسيئة وانما هي جزاء على السيئة . وكذلك : (ان تسخروا منّا فانا نسخر منكم) والفعل الثاني ليس بسخرية . ومثل هذا في الشعر والكلام كثير ومستعمل . فلما كان في مجرى العادة ان يقول القائل : أغلضتُ لفلانٍ القولَ . وجرّعته منه كأساً مُرّة . أو سقيته منه أمرّ من العلقم . وكان الملام مما يستعمل فيه التجرّع . جعل له ماءً على الاستعارة . وهذا كثير موجود »(١٦٩)

ولم يكتف أبو تمام بالبديع وصور البيان . بل كان يعمد أيضاً الى الافكار . ويتعمق فيها . ويستبط منها الواناً يرتاح لها العقل . وقد أثنى عليه ابو العلاء المعري في هذا الشيء . فقال : « كان صاحب طريقة مبتدعةٍ . ومعانٍ كاللؤلؤ متتبعة . يستخرجها من غامضِ البحار . ويفضُّ عنها المستغلق من المحار » .(١٧٠) ومن أمثلة هذه الطريقة المبتدعة قوله في مدح الحسن بن رجاء :(١٧١)

لاتنكري عطلَ الكريم من الغنى فالسيلُ حربٌ للمكان العالي
وتنظري خَبَبَ الركابِ ينضّها محيي القريض الى مميت المالِ

وقوله في مدح أبي دُلف العجلي :(١٧٢)

تكادُ عطاياه يجنّ جنونها اذا لم يعوذها بنغمةِ طالبِ
تكاد مغانيه تهشُّ عراصها فتركبُ من شوق الى كل راكبِ

(١٦٧) ديوانه ١ ، ٢٢ .
(١٦٨) سر الفصاحة ص ١٢١ .
(١٦٩) نفسه ص ١٢٢ .
(١٧٠) رسائل الغفران ص ٤٨٨
(١٧١) ديوانه ٢ ، ٧٧
(١٧٢) ديوانه ٢ ، ٩٠

وتتصل بالمزية السابقة مزيةٌ أخرى هي التعقيد اللفظي والميل الى الغريب من المعاني . وقد وصف شعره بقوله :(١٧٣)

فكأنما هي في السماع جنادل وكأنّما هي في العيونِ كواكبُ
وغرائبٌ تأتيك الا أنها لصنيعكَ الحسنِ الجميلِ أقاربُ

ولمس عل بن عبدالعزيز الجرجاني هذه الصفة في شعره فقال انه « تعسّف ما أمكن . وتغلغل في التصعب كيف قدر . ثم لم يرض بذلك حتى أضاف اليه طلب البديع . فتحمله من كل وجهٍ . وتوصل اليه بكل سببٍ . ولم يرض بهاتين الخليتين حتى اجتلب المعاني الغامضة . وقصد الاغراض الخفية . فاحتمل فيها كل غثٍ ثقيل . وأرصد لها الافكار بكلّ سبيل . فصار هذا الجنس من شعره اذا فرع السمعَ لم يصل الى القلب الا بعد اتعاب الفكر . وكدّ الخاطر . والحمل على القريحة »(١٧٤) فمن اغرابه قوله :(١٧٥)

وركبٍ يساقون الركابَ زجاجةً من السير لم تقصد لها كفُّ قاطبِ
فقد أكلوا منها الغوارب بالسُرى فصارت لها أشباحهم كالغوارب(١٧٦)

لاغرو ان ظهر مثل هذا التصعيب في شعره ، فانه كان يقتسر المعنى البعيد او الاستعارة التي يتخيلها . ولا يبالي بما يأتيه من نقد . فقد سأله ابو العميثل اللغوي : لمَ تقول مالا يفهم ؟ فأجابه على الفور : ولمَ لا تفهم ما يقال ؟(١٧٧) ـ وهذا الامر دفع الناقد العباسي المشهور علي بن عبدالعزيز الجرجاني الى القول ، ان ديوانه مشحون بالغموض والتعقيد .(١٧٨)

ومهما قيل في أبي تمام .(١٧٩) ، فانه يبقى ذلك الشاعر العربي الكبير الذي يشنّف الاسماعَ بأقوى الشعر وأجزله . وقد صدق ابن رشيق حين قال : « انما سمي

واذا أراد الله نشرَ فضيلةٍ طُويتْ أتاحَ لها لسانَ حسود
لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورتْ ما كان يعرفُ طيبُ عَرفِ العُود

ومن حكمه التي راقت الجاحظ وأعجبته . وعدّها تصلح للرواية والمذاكرة قوله

في البيتين الآتيتين اللذين يدعو فيهما الى الارتحال والتنقل ،لأن الانسان بحاجة الى تجديد النشاط والحيوية ورؤية عوالم جديدة :(٤٦٢)

وطولُ مقام المرءِ في الحيّ مخلق لديباجيتهِ فاغترب تتجددِ
فاني رأيتُ الشمسَ زيدت محبةً الى الناس ان ليستْ عليهم بسرمدِ

خصائص شعره :

أبو تمام شاعر مثقف وذكي . استوعب علوم عصره . وأحاط بها . واستقصاها . واستخلص منها زبدتها ووظفها في شعره توظيفاً اختلف الدارسون والنقاد فيه . فمنهم مَن صار معه ومنهم من صار عليه . وقد لاحظ أبو الفرج الاصبهاني ذلك فقال ، « وفي عصرنا هذا من يتعصب له فيفرطُ . حتى يفضله على كلّ سالفٍ وخالفٍ . وأقوام يتعمدون الرديء من شعره فينشرونه . ويطوونَ محاسنه »(٤٦٣) . ومن أبرز الأمور التي اخذوها عليه في شعره الصنعة البديعية . والصنعة المعنوية او الاختراع . والاغراب والتعمد في اختيار الالفاظ المبهمة والصعبة .

لقد عمد كثير من الشعراء الى الاستعانة بالبديع . ولاسيما الجناس والطباق والمقابلة والتلميح ومراعاة النظير ... والاكثار من التشبيهات والاستعارات والكنايات . وأولهم مسلم بن الوليد ثم تبعه ابو تمام .(٤٦٤) وفاقه وأربى عليه حتى « صار فيه اولاً واماماً متبوعاً . وشهر به حتى قيل ، هذا مذهب ابي تمام » .(٤٦٥) وقد اشار بنفسه الى هذا المذهب فقال :(٤٦٦)

ان الجيادَ اذا علتها صنعةٌ راقت ذوي الآداب والافهامِ
لتزينُ الأبصار فيها فسحةٌ وتأملاً باشارة الاقوامِ

(٤٦٢) ديوانه ٢ ، ٢٣ . البيان والتبيين ٢ ، ١٨٧
(٤٦٣) الاغاني ١٦ ، ٢٨٣
(٤٦٤) تنظر ، الصورة الفنية في شعر أبي تمام ص ١٤٣ ـ ١٨٤ .
(٤٦٥) الوساطة ص ١٦ .
(٤٦٦) ديوانه ٢ ، ٢٨١ .

ان النقاد تتبعوا شعره . ونظروا فيه بدقة . وانكروا عليه اموراً جمة . والشواهد عليها كثيرة . تأخذ منها قوله :(٤٦٧)

لاتسقني ماء الملام فإنّني صبٌ قد استعذبت ماء بكائي

قالوا ، « اذا كان ماء الملام هو ماء بكائه فكيف يكون مستعفياً منه ، مستعذباً له »(٤٦٨) وقد ردهم الآمدي بقوله ، « ليس قول ابي تمام ـ لاتسقني ماء الملام ـ بعيبٍ عندي . لأنه لما أراد ان يقول ـ قد استعذبت ماء بكائي جعل للملام ماءً ليقابل ماءً بماء . وان لم يكن للملام ماء على الحقيقة . فان الله جلّ اسمه يقول ، (وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها) ومعلوم ان الثانية ليست بسيئة وانما هي جزاء على السيئة . وكذلك ، (ان تسخروا منّا فانا نسخر منكم) والفعل الثاني ليس بسخرية . ومثل هذا في الشعر والكلام كثير ومستعمل . فلما كان في مجرى العادة ان يقول القائل ، أغلضتُ لفلانٍ القولَ . وجرّعته منه كأساً مُرّةً . أو سقيته منه أمرّ من العلقم . وكان الملام مما يستعمل فيه التجرّع . جعل له ماءً على الاستعارة . وهذا كثير موجود »(٤٦٩)

ولم يكتف أبو تمام بالبديع وصور البيان ، بل كان يعمد أيضاً الى الافكار . ويتعمق فيها . ويستنبط منها الواناً يرتاح لها العقل . وقد أثنى عليه ابو العلاء المعري في هذا الشيء . فقال ، « كان صاحب طريقة مبتدعةٍ . ومعانٍ كاللؤلؤ متتبعة . يستخرجها من غامضِ البحار . ويفضُّ عنها المستغلق من المحار » .(٤٧٠) ومن

أبو عبادة البحتري
٢٠٦ ـ ٢٨٤ هـ

هو الوليد بن عُبَيد الله بن يحيى . وكُنيتهُ أبو عُبادة . واشتهر في عالم الأدب بلقبه البحتري . نسبةً الى بُحتر أحدأجداده(١٨١) . ينتهي نسبه الى طيء احدى القبائل القحطانية . وكانت أمه عربية من بني ناهل احدى القبائل التغلبية . فهي عربية خالصة النسب أيضاً . وقد أشاد في شعره بنسبه العربي . فقال :(١٨٢)

إنَّ قومي قومُ الشَّريف قديماً وحديثاً . أبوَّةً . وجُدُودا
ذهبت طيءٌ بسابقة المجـ ـد على العالمين : بأساً وَجُودا

سيرته :

ولد البحتري في مدينة تشتهرُ بالخضرة والمروج تسمى « مَنْبِج » . تقع في الشمال الشرقي من حلب . سنة ٢٠٦ للهجرة . وأمضى فيها طفولته وشبابه . وأخذ فيها علومه . ولا سيما مايتصل بالقرآن والحديث واللغة والنحو والفقة .. وكان مولعاً بحفظ الشعر يُنشِدُه في ذهابه وايابه كما يقول ابن خلكان(١٨٣)

ظهرت مواهبه الشعرية في وقت مُبكر . وحينما آنسَ من نفسه القدرة على مواجهة رجال الأدب ومحاورتهم شدَّ رحاله واتَّجه صوبَ حمص ليلتقي بالشاعر الكبير أبي تمام الطائي ليعرض عليه نظمه ويأخذ رأيه فيه . وبينما هو في طريقه مرَّ بحلب . وفيها وقعت عينه على فتاة جميلة تدعى « علوة بنت زُرَيْقَة الحلبية » . ففُتِنَ بشكلها وقوامها الرشيق . ونظم فيها شعراً في غاية الرقَّة والعذوبة . وبقيت صورتها عالقةً في ذهنه بعد رحيله عنها .

---

(١٨١) الأغاني ٢١ ، ٣٧ . معجم الأدباء ٧ ، ٢٣٦ (١٨٢) ديوانه ١ ، ٥٩٢ .
(١٨٣) وفيات الأعيان ٦ ، ٢٢ .

وصل البحتري الى حمص والتقى بأبي تمام . وأنشده شعره أمام مجموعة من الشعراء الحاضرين آنذاك . فأقبل عليه . وأكرمه . وقال له : أنت أشعرُ مَنْ أنشدني . فكيف حالك ؟ فشكا اليه خُلَّةً . فكتب الى أهل معرة النعمان في شأنه . فاستقبلوه بحفاوة . ولمسوا نباهته . وشاعريته الجيدة . ووظَّفوا له أربعةَ آلاف درهم . كانت أول مالٍ أصابه بالشعر(١٨٤)

وفي رواية أخرى تقول : إنه التقى بأبي تمام في مجلس أبي سعيد الثغري أمير الجزيرة . قال البحتري : « أول مارأيت أبا تمام أنّي دخلت على أبي سعيد محمد ابن يوسف . وقد مدحته بقصيدتي :

أفاقَ ضَبٌّ من هوىً فأفيقا ؟ أو خانَ عهداً أم أطاع شفيقاً ؟

فسُرَّ بها أبو سعيد . وقال : أحسنتَ والله يافتى وأجدتَ ... ودعاني أبو تمام . وضَمَّني اليه . وعانقني . وأقبل يُقرِّظني . ولزمته بعد ذلك . وأخذتُ عنه . واقتديتُ به(١٨٥) » ويُرجِّح الصولي أنَّ هذه الرواية ربما كانت قبل ذهابه الى معرة النعمان .